«علي أحمد باكثير بمناسبة مرور قرن على مولده»

لفت الانتباه إلى تراث أدبي غزير

الكتاب: علي أحمد باكثير بمناسبة مرور قرن على مولده
المؤلف: د. عبد الحكيم الزبيدي
الناشر: مجلة الرافد - كتاب

في الوقت الذي كان فيه الاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب يعقد مؤتمره السنوي، بالاشتراك مع رابطة الأدب الإسلامي العالمية بعنوان "علي أحمد باكثير ومكانته الأدبية" وذلك بمقر الاتحاد في قلعة صلاح الدين بالقاهرة واستمر المؤتمر لمدة أربعة أيام من 1 إلى 4/ 6/ 2010، وذلك بمناسبة الذكرى المئوية الأولى للقاص والروائي والمسرحي والشاعر العربي الراحل علي أحمد باكثير.. صدر عدد جديد من مجلة الرافد التي تصدر عن دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة ورافق العدد الجديد إصدار كتاب الرافد الذي خَصّص للشاعر والمسرحي والأديب العربي الكبير الراحل علي أحمد باكثير، بمناسبة مرور قرن على مولده (1910 -1969)، وجاء الكتاب الذي ألفه الدكتور عبد الحكيم الزبيدي في 260 صفحة من القطع الصغير، تناول فيه الزبيدي إنتاج الأديب الراحل المتنوع بين الشعر والرواية والمسرح بشقية الشعري والنثري وريادته في كل منها، ويشتمل الكتاب على مقالات كتبها الزبيدي على امتداد أكثر من عشرين عامًا حول أدب باكثير وجاء الكتاب في مقدمة وأربعة فصول..

وُلد علي أحمد باكثير في 22 ديسمبر 1910م بإندونيسيا لأبوين من حضرموت باليمن، وهاجر من وطنه الأصلي حضرموت سنة 1932م بعد فجيعته بوفاة زوجته الشابة إلى عدن ثم غادر عدن إلى المملكة العربية السعودية، ثم إلى مصر حيث استقرّ بها حتى وفاته في العاشر من نوفمبر 1969م.

وقد ترك باكثير تراثًا أدبيًا ضخمًا نُشر منه ما يقرب من ثمانين مسرحية وخمس روايات والمخطوط أربعة دواوين شعريّة تنتمي لمراحل حياته الأربع: ديوان أزهار الربا في شعر الصبا شعره في المرحلة الحضرمية، ديوان سحر عدن وفخر اليمن شعره في المرحلة العدنية، ديوان صبا نجد وأنفاس الحجاز شعره في المرحلة السعودية أما أكبر دواوينه فهو ديوان وحي ضفاف النيل ويضمُّ شعر بقية حياته في مصر.

ورغم أن باكثير لم يصدر دواوين شعرية في حياته، فإنه يعدّ رائد الشعر الحر بإجماع الكثير من كبار النقاد أمثال الدكتور عز الدين إسماعيل وباعتراف بدر شاكر السياب نفسه، وذلك بعد ترجمته لمسرحية روميو وجولييت سنة 1936م، وتأليفه مسرحية إخناتون ونفرتيتي سنة 1938م الشعريتين.

أما في الرواية، فيعدّ باكثير رائد الاتجاه الإسلامي في الرواية العربية التاريخية، وقد أنتجت له السينما ثلاثًا من رواياته أصبحت من أشهر الأفلام السينمائية وهي واإسلاماه والشيماء أخت الرسول صلى الله عليه وسلم في الرضاعة، وسلامة، الفيلم الذي مثلته أم كلثوم، أما في المسرح فباكثير رائد المسرحية السياسية في تاريخ المسرح العربي، وأهم أديب عربي تناول قضايا الأوطان العربية والإسلامية وكفاحها ضد الاستعمار، وهو الذي تنبّأ بقيام دولة الكيان الصهيوني بثلاث سنوات في مسرحيته الشهيرة شايلوك الجديد التي صدرت سنة 1944م، وهو أكثر أديب عربي تناول قضية فلسطين في خمس مسرحيات منها التوراة الضائعة، وإله إسرائيل، وشعب الله المختار.

تناول الزبيدي في كتابه باكثير شاعرًا وبيّن أن باكثير هو رائد القصيدة الحديثة؛ فقد كتب أولى محاولاته عندما ترجم مسرحية روميو وجوليت لشكسبير بالشعر المرسل، وذلك في العام 1936؛ أي قبل عشر سنوات من كتابة بدر شاكر السياب ونازك الملائكة لقصائدهما الحديثة، ثم كتب مسرحية إخناتون ونفرتيتي بالشعر المرسل بعد أن استفاد من تجربته السابقة في روميو وجولييت، بأن اختار أصلح البحور الشعرية لهذا النمط من الشعر وهو بحر المتدارك، وذلك عام 1938.

ويعدّ أهم ما أحدثه باكثير من تطوير وتجديد في شعره وفي الشعر العربي كله ما توصل إليه من كسر نمطية البيت الشعري في الشعر العربي القديم، حيث كان كل بيت في القصيدة قائمًا بمعناه في الغالب، وقد توصل إلى ذلك بعد المشادة الحوارية التي دارت بينه وبين أستاذه الإنجليزي في مدرج كلية الآداب (47) فقد اتهم الأستاذ الإنجليزي اللغة العربية بالقصور في الموسيقى والتعبير وليست العربية فحسب بل إن أصحاب لغات أخرى ومنها الفرنسية حاولوا ذلك فلم يوفقوا أو يفلحوا في الوصول إلى ما وصل إليه الإنجليز أو اللغة الإنجليزية، وقد ردّ عليه باكثير بما يشبه التحدي وأن اللغة العربية ليست مثل اللغات الأخرى، بل هي غنية بمفرداتها وتعابيرها وموسيقاها وإذا لم يوجدْ هذا اللون من النظم فيها فليس العيب في اللغة بل العيب في أصحاب اللغة، ومن ثم انبرى يجرب ويحاول العثور على شكل جديد للشعر العربي، وقد ساعده في ذلك أمران: دراسته للأدب الإنجليزي، وعشقه لشكسبير خاصة.

لذلك تملّكت باكثير روح العروبة فشمر عن ساق الجد فأخذ يبحث ويجرب في موسيقى الشعر العربي وليس في موسيقى الشعر الغربي حتى اهتدى إلى الشكل المعروف لدينا اليوم بشعر التفعيلة، حيث ترجم في البداية الليلة الثانية عشرة لشكسبير بالشعر المقفى ونشرها على حلقات في مجلة الرسالة ولم يتجاوز الحلقتين حيث تبيّن له أن أستاذه الإنجليزي على حق فيما ذهب إليه ولكنه لم ييأس فعاد ليترجم مسرحية روميو وجوليت لشكسبير أيضا على طريقة الشعر المرسل وبدأت القوالب تلين بين يديه، ووجد أن ذلك ممكن، وقد انتهى من هذا العمل وهو ما زال طالبًا ولكنه لم يظهره ربما كان ذلك تهيبًا لأن الساحة الأدبية غير مستعدة لتقبله وربما كان لأسباب ثقافية أو دينية... ومن هنا يبدو لنا أن العمل الذي قام به ليس وليد الصدفة كما يذكر ولا وليد لحظة انفعال وإنما حصيلة جهد وخبرة وتجارب ودراسة.

ثم تحدّث عن رثاء الزوجة بين باكثير وصالح الحامد، كما يعرض الزبيدي للعلاقة التي ربطت باكثير بالأديب العربي نجيب محفوظ حيث ربطت بينهم رابطة الزمالة والصداقة ورابطة الأدب والقلم، وكانت بداياتهما في وقت متقارب، وكان أول ارتباط بين اسميهما حين فازا بأول جائزة أدبية مناصفة وهي جائزة السيدة قوت القلوب في العام 1944.

ويتحدّث الزبيدي في كتابه عن باكثير ناقدًا من خلال كتاب مجهول للأديب العربي باكثير يحمل عنوان المختار في الشعر الحديث، وهو يضمُّ قصائد لشعراء صاروا فيما بعد معروفين ومشهورين، وقد شاركوا بتلك القصائد في تقويم دعوا للمشاركة فيه لرصد الشعر المحدث في الوطن العربي..

ومن بين هؤلاء الشعراء نزار قباني، عبد الله البردوني، محمد التهامي، حسن فتح الباب، إبراهيم الحضراني والشاعر أبو سلمى.. ويقول الزبيدي في كتابه حول القيمة الأدبية لذلك الكتاب الذي كتب مقدمته الأديب العربي باكثير: إن قصائد الكتاب تمثل مادة خصبة لدراسة شعر تلك الحقبة من الناحية الفنية ومن ناحية الموضوعات، إذ نجد قصائد الجهاد في فلسطين والجزائر، ومن الناحية الفنية نجد أن القصائد قد غلب عليها الشعر العمودي المقفى مع وجود خمسة نماذج من الشعر الحرّ، ثلاث منها للشاعر نزار قباني.

تحدث الزبيدي في البداية عن رحلة البحث التي قام بها من أجل العثور على الكتاب وبيّن أن الكتاب هو الإصدار أو التقويم الشعري الثاني الذي أصدره المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في مصر أو الإقليم الجنوبي كما كان يُعرف آنذاك 1959م إبان الوحدة بين مصر وسوريا، وقد تولى مراجعته وضبطه وتفسيره الأديب علي أحمد باكثير العضو بلجنة الشعر - كما وقع تحت اسمه.

وقد قدّم باكثير للكتاب بمقدمة مختصرة بيّن فيها أن هذا التقويم الثاني هو كسابقه من حيث اشتماله على طائفة صالحة من الشعر الحديث الجدير بالتقدير والالتفات من نظم واحد وثلاثين شاعرًا من مختلف الأقطار العربية، ومن حيث أنه لا يستوعب كل ما نظمه الشعراء المحدثون في البلاد العربية خلال العام المنصرم وإنما هو المختار من الشعر الذي تفضل ناظموه مشكورين فأرسلوه إلى لجنة الشعر بالمجلس، ملبين بذلك الدعوة التي أعلنها المجلس إلى حضرات الشعراء في الأقطار العربية ليشتركوا في هذا التقويم الشعري بالمختار من قصائدهم ومقطوعاتهم، ومن خلال هذه المقدمة يتضح أن هذه القصائد هي مختارات اختارتها لجنة الشعر في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية من مجموعة من القصائد التي تقدم بها ناظموها تلبية لدعوة المجلس، وأنها تمثل البلاد العربية التي شارك شعراؤها في تلبية الدعوة، ويعد هذا الكتاب كما يرى الزبيدي مرجعًا أساسا لدراسة أدب وفكر الأديب علي أحمد باكثير.

ويأتي هذا الكتاب كما يقول المؤلف محاولة متواضعة في سبيل إنصاف باكثير ولفت الانتباه إلى تراثه الأدبي الغزير الذي يمسّ صميم حياة المواطن العربي منذ مطلع القرن العشرين الميلادي وحتى يومنا هذا وهي مقالات كتبها المؤلف ونشرها على امتداد عشرين عامًا. ومما يُذكر أن الدكتور عبد الحكيم الزبيدي شاعر وكاتب وباحث من الإمارات العربية المتحدة، وحاصل عل دكتوراة في الإدارة الطبية من جامعة أبردين بالمملكة المتحدة وبكالوريوس في اللغة العربية وآدابها من جامعة الإمارات العربية المتحدة، له أعمال شعرية نشر بعضها في الصحف والمجلات الأدبية، وفازت بعض قصائده بجوائز في المسابقات الأدبية، كما أن له العديد من الدراسات الأدبية المنشورة في الصحف والمجلات الأدبية والمواقع الإلكترونية.